سردية الرسالة في الأدب الجزائري على العهد الرستمي

قراءة في المضمرات النسقية

د.العزوني فتيحة*

الملخص:

لقد أولى فضاء الثقافة الإسلامي عناية بالرسائل واهتم اهتماما بالغا بأساليب أدائها وأحاط حاملها بعناية فائقة لأنه هو من يمثل قناة التواصل بين المتراسلين. ومع استقرار الدولة الإسلامية وثبات أركانها حقّق فن الترسل حضوره النوعي والجمالي، حيث تمّ تطوير أدواته ممّا أسهم في تشكل فن أدبي نثري جديد.

وعلى قلّة المادة النثرية الجزائرية الموثقة التي وصلتنا عن العهد الرستمي، فإن ما عثرنا عليه من رسائل مبثوثة في المصادر القديمة يدلّ على أن هذا النّوع من النّثر كان متداولا مألوفا ومرد قلّة وصوله إلينا عدم توثيقه كما هو الشأن في البدايات الأولى لكل ما هو قديم. مما يهيئنا إلى أن نعدّل نظرتنا إزاء الحياة الثقافية والفكرية للمجتمع الجزائري آنذاك.

استنادنا كان على ما جمعه لنا **سليمان الباروني** في كتابه: **الأزهار الرياضية** من النصوص الرسائلية والتي صدرت غالبا عن أميرين اثنين هما: **أفلح بن عبد الوهاب** بن عبد الرحمن بن رستم، وابنه **محمد بن أفلح بن عبد الوهاب**. وتشكل هذه الرسائل سندا تاريخيا هاما، نظرا لاستثمارها في دعم المشروع الإيديولوجي الذي عليه نهضت الدولة الرستمية في تيهرت.

مبتغانا العلمي هو تحليل إحدى رسائل **أفلح بن عبد الوهاب** من مدخل إجرائي قصد الكشف عن مضمرات خطاب الرسالة وكذا الكشف عن الآليات التي يشتغل وفقها هذا الخطاب، إذن : **أسئلتنا التي ثورناها نحددها في: ما هي النصوصيّة التي تنتجها الرّسالة المتخبة للتحليل؟ ما هي سبل الإقناع التي توظفها؟ كيف هي وضعية المتكلم فيها؟ كيف تصنع هذه الرّسالة سرديتها؟**

الكلمات المفتاحية:

الرسالة – الأدب الرستمي- أفلح بن عبد الوهاب – السرد – الأزهار الرياضية

*-أ.العزوني فتيحة، كلية الأدب والفنون، جامعة وهران1.

مقدمة:

يشكل الأدب الجزائري القديم جزءا هاما من تاريخنا الثقافي، لذا ينبغي علينا إنزاله المكانة التي تليق بمقامه، لكن جميعنا يعلم أنه أدب مشتت، تتحتم علينا العناية بجمعه وبعثه وإحيائه. وليس هذا بعمل فرد، إنما هو مشروع أمة ينبغي أن تحشد جهودها وتتكاثف للبحث عن عنصر الأصالة وخصائص القيم الثابتة في أدبنا القديم. لعلنا ننصفه وندخل ببلادنا مرحلة النضج.

تواجه الباحث في هذا الحقل البكر أسئلة عميقة نحتاج إلى تفعيلها بعيدا عن الرؤية الضيقة من قبيل: من أين نؤرخ للأدب الجزائري القديم؟ إلى أين ينتهي هذا القدم؟ ثم ما هي محددات هذا الأدب؟ ما هو لسانه؟ ما هي أبعاده؟ ...هي أسئلة كان قد طرحها قبلنا الدكتور **عبد المالك مرتاض** في مقدمة كتابه: **الأدب الجزائري القديم- دراسة في الجذور**[1]، منتهيا إلى أن بداية هذا الأدب مقرونة بعهد الدولة الرستمية. لكن الذي يفك شفرات تلك المقدمة يستشعر أن الباحث **مرتاض** يكاد يقتنع أن ثمة أدب جزائري يسبق هذه المرحلة (قبل الفتح الإسلامي).

ولأن الخوض في البحث في ما قبل هذه المرحلة قد يثير الكثير من الحساسيات فضلا عن تعذّر الحصول على المادة الأدبية، فقد تجاوزه الباحث. لكن تظل تلك الأسئلة الجريئة -على النحو الذي وصفها- حجة على صاحبها في أن ربط تأريخ الأدب الجزائري القديم بالعهد الرستمي مسألة غير قطعية وتحتاج إلى طرح نقدي متجدّد، وإلا ما الذي حمل الباحث إلى إثارة أسئلة من ذلك القبيل؟ ليصبح الأدب الجزائري القديم على العهد الرستمي وفي ضوء قراءتنا النقدية لمقدمة كتاب **مرتاض** لا يمثل سوى طورا من أطوار هذا الأدب. فهناك أطوار سابقة وأخرى لاحقة...

ما نلاحظه على تاريخ الأدب الجزائري أنه أدب مبعد دوما نحو الهامش رغما عنه. لكن كيف يتعاطى هذا الأدب مع الاقصاء؟ ما وقفنا عليه هو أن الأدب الجزائري في أطواره المتعددة يعيش صراعا من أجل افتكاك مكانة ما في مركز الدائرة.

يصارع الأدب الجزائري عقدة الهامش ليعشّش في مركز الأدب العالمي ممثّلا صدارة الأعمال الروائية بدءا من رواية "الحمار الذهبي" للوكيوس أبوليوس (124م)[2]، هذه الرواية على الرغم من إقرار الغرب بانتمائها الأصلي، يوردها محمد غنيمي هلال في كتابه"الأدب المقارن" دون ضبط الاسم الكامل لصاحبها وينعتها بأنها رواية لاتينية "لها أصل يوناني مجهول المؤلف"[3]. ليعمّق بذلك عزلة النص الأدبي المحلّي معزّزا فكرة الإقصاء التي يعانيها. ونعتقد أن غنيمي هلال له من الأدوات ما يؤهله لأن يقف على هوية صاحب النص. وجملة واحدة من تلك الرواية كانت ستفك اللغز لدى قول السارد عن نفسه: "رجل مداوري[4] فقير جدا"[5]. هل فات غنيمي هلال أن يقرأ النص؟ أم أنه قرأه وغيّب الجملة تلك، لأنّها تؤشر على انتماء أبوليوس وعلى هويته؟

في السياق نفسه يعترف **جورج ماي** في كتابه **السيرة الذاتية** L'autobiographie [6] بأن اعترافات **القديس أوغسطين**[7]. تكون قد سبقت بقرون طويلة السيرة الذاتية التي عرفها الغرب قديما وحديثا. دون أن ننسى الإفادة التي أفادها منه كبار المنظرين في حقل التأويل والسيميائيات، على رأسهم **أمبرتو إيكو** الذي اعتبر أوغسطين من أوائل الذين طرحوا السؤال: ما يعني أن نفسر ونؤول؟ انطلاقا من تأويله للنصوص المقدسة ...ومعطيات كثيرة تفيد أن السيميائي الأمريكي **شارل بيرس** قرأ أوغسطين وتعمق في تصوراته وأخذ عنه الكثير في التأسيس لأطروحاته. ولعل فهم الدين عن طريق الفلسفة مشروع أسس له القديس أوغسطين -الذي ساهم في تطوير الفكر البشري- ثم تعمّق مع الفارابي وابن سينا و ابن رشد ومع غيرهم من العلماء المغاربة والأندلسيين.

بعد الفتح الإسلامي تعمّقت صلة المشرق بالمغرب وأصبحت "تسري في تراثه الغني والمتنوع، بكل ملابساته الثقافية وأنماطه الفكرية. ولا أحد ينكر أن هذا الفكر ظل يمتاح في رؤاه وتصوراته من موروثه المشرقي الأصيل متفاعلا معه ومنفعلا به، متأثرا به ومؤثرا فيه. وإن انفتح على الثقافات المستحدثة الوافدة. يتجلى ذلك -أكثر ما يتجلى- في العلوم الإسلامية والشرعية والنصوص الأدبية والنقدية والدراسات الفلسفية والكلامية."[8]

هذه التبعية التي أبداها الأدب المغاربي في بداياته الأولى للأدب المشرقي ظلت حاجزا منيعا أمام تبلور هويته. وقد مارست مقولة: "بضاعتنا ردّت إلينا" الغبن والدونية على الأدب الجزائري القديم. ووقفة متأنية على تجربتي بكر بن حماد (200هـ-296هـ)، وعلى أبي محرز الوهراني (ت:1565م) في رحلتهما نحو المشرق تجعلنا نقف على الكثير من القراءات بخصوص الصراع المرير الذي خاضته الأنتلجنسيا الجزائرية لإثبات ذاتها مشرقيا.

مايعمّق أزمة النّص الجزائري القديم هو اهتمام أغلب البحوث الأكاديمية وكذا الملتقيات والندوات العلمية حاليا بالمعاصر منه، وفي ذلك إقصاء للقديم وهو في عقر داره، وذلك على الرغم من أنه يفتح إمكانات البحث أمام متلقيه نظرا لتعدد أشكاله التعبيرية وتنوعها الأمر الذي يغرينا بضرورة البحث في مظانه ووظائفه وغاياته وخصائصه وبنياته وعلاقاته بعضها ببعض. أقول إن قراءة هذا الأدب في شكل حلقات منفصلة عن بعضها البعض لا يخدم فكرة التراكم التي نحقق بها تاريخية الأدب، إذ ينبغي توسيع دائرة البحث بين المتخصصين في هذا الحقل قصد مقاربة الإشكالات التي يطرحها هذا الأدب.

1- فن الترسل الجزائري على عهد الدولة الرستمية :

خرجت الدولة الرستمية (160هـ-299هـ) عن السلطة المركزية العباسية بالمشرق على يد **عبد الرحمن بن رستم**. أول مؤسس للدولة الإسلامية الجزائرية المستقلة." ازدهرت هذه الدولة، وقد أصبحت تيهرت العاصمة العالمية للمذهب الخارجي يؤمها الخوارج من جميع الأرجاء، فأصبحت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة. فعرف إذن الجزائريون الثقافة ونبغوا في مناحيها منذ عهد سحيق وخصوصا الثقافة الدينية."[9]

مكنت الدولة الرستمية اللغة العربية من الانتشار وجلبت من المشرق الكتب إلى مكتبة تيهرت "المعصومة" حتى تغرس القوة الروحية للحركة الخارجية التي أساسها المشرق. "إن هذه الدولة بحكم خارجية مذهبها وقيام نزعتها على الجدال الشديد والحوار العنيف كانت مضطرة إلى اصطناع اللسان والعقل لإقناع الخصم الألداء، وطمأنة الأشياع الأحباء، ومثل هذا السلوك الفكري لا يجوز له أن ينفصل عن حركية الإبداع وتبلور الخصب الفكري."[10]

وبالعودة إلى كتب التاريخ التي أرخت لهذه المرحلة نجد المؤرخين يؤكدون تكاثر الشعراء في الدولة الرستمية وازدهار العلم على عهدها، وهو ما لا يتماشى مع ما وصل إلينا من مادة أدبية تخص هذه المرحلة من عمر الجزائر القديمة. فتراث هذه المرحلة الثقافي لا يزال مجهولا إلى الآن. مردّ ذلك إلى أسباب عدة، فربما أشعار هذه الفترة معظمها لم يدوّن، أو أنها دوّنت و أحرقت المخطوطات أثناء الحروب. لكن الأكيد هو ضياع الكثّير من الحقائق التاريخية نتيجة الصراعات السياسية. وعليه تأتي ندرة المصادر وضآلة المادة التي تشتمل على الأدب الجزائري القديم في طليعة المثبّطات التي تعترض سبيل الباحث. وعلى الرغم من ندرة التوثيق فقد ذكرت المصادر العربية القديمة الموسوعية طائفة منها وهذا يقوم دليلا قاطعا على وجودها.

وتتّفق تلك المصادر على أن الشاعر بكر بن حماد هو أقوى الممثلين للمرحلة التي نعاينها بحكم أنه أقوى الشعراء نسجا وأكثرهم تلقيا، حيث احتفظت لنا كتب التاريخ والتراجم والأدب بالعديد من قصائده ومقطوعاته. ويقف هذا الموروث شامخا ليسد الفراغ الأدبي الناتج عن ضياع نتاجات أخرى في زمن المحن والحروب.

مع استقرار الدولة الإسلامية وثبات أركانها حقّق فن الترسل حضوره النوعي والجمالي، حيث تمّ تطوير أدواته. وأنشئ "ديوان خاص للرسائل يقوم عليه كتّاب بأعيانهم، ثم تنتشر الظاهرة فيصبح للولاة أنفسهم دواوين للرسائل عليها كتاب مختصّون"[11]. ممّا ساهم في "تبلور الرسائل فنا أدبيا راقيا، تغيّرت معه أساليب النّظر للكتابة والكتّاب، مثلما تغيّرت منزلتهم وهم يقتربون من الخلفاء والأمراء وأولي الأمر." [12]

والرسالة "من أكثر فنون الأدب تعبيرا عن الخاص، وأوضحها في كشف الذاتي وإضاءة كوامنه وهي بحسب تعبير ابن حزم وجه من وجوه اللذة التي تتعدّد بتعدّد وجوه المراسلة. "[13]. إن الذات المرسِلة هي أوّل من يواجه الرسالة بما يعتمل في دواخلها (الذات) من مطامح أو رغبات أو مخاوف. ثمّ " تمرّ الرّسالة بمراحل يتغيّر فيها المرسل إليه بتغيّر آلية الإرسال وزمنيته. "[14]

ينتمي فن الترسل لفضاء الثّقافة العام وهو يستجيب في فاعلية إنتاجه لأنظمة التعامل ويحافظ على أخلاقياتها. تهيئ الرسالة "إمكانية اللغة وقابليتها البلاغية ما يضيء رغبة صاحبها في استجابته للأنظمة والأعراف التي يعتمدها الترسل في وزمان ومكان معينين."[15] ومثلما تكشف الرسالة صورة بيّنة عن مرسلها فإنها تحافظ في مهمتها الاتصالية على صورة متلقيها "حيث تختلف وتتغيّر شفراتها السوسيو-ثقافية واللّسانية باختلاف منزلة المتراسلين ومكانتهم، في إشارة صريحة منها لارتباطها بأنظمة الثقافة وآلياتها"[16].

لقد أولى إذن فضاء الثقافة الإسلامي عناية بالرسائل واهتم اهتماما بالغا بأساليب أدائها وأحاط حاملها بعناية فائقة لأنه هو من يمثل قناة التواصل بين المتراسلين. فقوة تأثير الرسالة تستمدّ من تأثير قوة حاملها، فكثيرا ما كان الرسول يضطر للإفهام عن مضمون الرسالة التي يحملها مسهما في إضاءة أهدافها. وفي ذلك تكافؤ نسبيّ بين المرسل، الحامل والمحمول. إذن "يرتفع الرسول في الدلالة إلى ما تدّل عليه الرسالة نفسها من جهة الاختيار والتكليف فدقة اختيار اللفظ وقدرته على الإبانة عن غرض الرسالة تعادلان من حيث علاقتهما بعقل صاحب الرسالة، دقّة اختياره رسوله وقدرة هذا الرسول على إنجاز ما كلف به على أحسن وجه".[17]

يندرج الرسول ضمن المجالين الموضوعي والاجتماعي للرسالة منسجما مع ملابساتها ويتحوّل إلى عنصر فاعل في مجاليها، "مثلما يعدّ علامة منتظمة ضمن السياق الثقافي لعلاماتها، وإن كانت الصفات السابقة تقترح للرسول بين متحابين، فإن اختلاف الرسائل وتباين موضوعاتها يدعو للتفكير بالصفات المطلوبة لكل رسول وهي إنما تشتق من مجال الرسالة نفسه وتعبّر عن موضوعها."[18]

أشرنا في ما سبق أن الأدب الرستمي إنما ينبغي أن "يقاس على مقاس ذلك الزمن في ذلك المكان الذي كان حديث العهد بنور الحضارة العربية الإسلامية."[19] وعلى قلّة المادة النثرية التي وصلتنا على هذا العهد، فإن ما عثرنا عليه من رسائل مبثوثة في المصادر القديمة يدلّ على أن هذا النّوع من النّثر كان متداولا مألوفا وقلّة وصوله إلينا لا يعني بالضرورة عدم وجوده. إنما مردّ ذلك -على النحو الذي وضّحنا سلفا- إلى عدم توثيقه كما هو الشأن في البدايات الأولى لكل ما هو قديم.

يرتبط النّثر على هذا العهد في أغلبه بحكام الدولة الرستمية أنفسهم. وإذا اقتربنا من العلاقات الرسائلية نجدها تعكس لونا من ألوان التمدن. مثلما تعكس قدرة العصر البلاغية. تمّ استثمارها في دعم المشروع الإيديولوجي الذي عليه نهضت الدولة الرستمية في تيهرت. مما يهيئنا إلى أن نعدّل نظرتنا إزاء الحياة الثقافية والفكرية للمجتمع الجزائري آنذاك. فـ"العلاقات الرسائلية ليست علاقات أدبية فحسب، بل هي علاقات تبادل معرفي وتعدّد ثقافي في

شتى مجالات الحياة الفردية والجماعية."[20]. فضلا عن مستوى اللغة المشفّرة التي تكتب بها والتي تعكس قدرة المرسِل في التحكم في ناصية اللّغة وكذا قدرة المرسَل إليه في الوقوف على مضمرات هذه اللغة المكتوبة بها الرسالة.

جمع لنا **سليمان الباروني** في كتابه: **الأزهار الرياضية** بعضا من النصوص الرسائلية التي صدرت غالبا عن أميرين اثنين هما: **أفلح بن عبد الوهاب** بن عبد الرحمن بن رستم، وابنه **محمد بن أفلح بن عبد الوهاب**. هذه الرسائل تعدّ جزءا من التاريخ لأنّها تسرد تفاصيل تاريخية معينة.

2- الحضور النصّي لرسالة أفلح بن عبد الوهاب:

يعد أفلح بن عبد الوهاب من أكثر الحكام الذين استثمروا فن الرّسالة للتأسيس لدولته وبسط نفوذها السياسي على الرعيّة والمعادين له. وقد أورد سليمان الباروني رسائل معدودة لهذا القائد المحب للعلم والحاثّ عليه، و على قلّة عددها، إلا أنها تعطي صورة لابأس بها عن نسق الحياة على أيامه.

من جهتنا انتخبنا رسالة واحدة للتحليل وردت في الأزهار الرياضية موسومة بـ: (**النصيحة العامة من الإمام أفلح رحمه الله إلى كل من كان تحت لوائه من المسلمين** "[21]. وتعويلنا على فن الترسّل يأتي نظرا لما أصبح ينتجه "التخاطب الرسائلي ... من نصوصية دون سائر أنماط التلفظ في هذا المقام الأدبي الكبير."[22]

"لم يكن شيء ألصق بالحياة العربية قديما (وحديثا) وألزم لها بعد الشعر من السرد، أي من وضع الحكايات والقصص، ونقل ما أنتجه السابقون منها وروايتها مع أخبارهم."[23]. فالسرد "أداة من أدوات إقامة النسق الفكري والاجتماعي هذا إن لم تكن أهمها على الإطلاق "[24]. وتحقق هذه الرسالة المنتخبة للمقاربة حضورها النصي مخترقة الرصيد الثقافي السردي. ومقاربتها مرتبطة بالكشف عن مضمراتها النسقية. الأمر الذي يغيّر فاعليتها السردية ويؤثّر في انتظام بنياتها. وقصد تحقيق هذا المبتغى نتوخى تحليل هذه الرسالة من مدخل إجرائي قصد الكشف عن مضمرات الخطاب وكذا الكشف عن الآليات التي يشتغل وفقها هذا الخطاب. إذن: **أسئلتنا التي ثورناها نحددها في: ما هي النصوصيّة التي تنتجها الرّسالة المتخبة للتحليل؟ ما هي سبل الإقناع التي توظفها؟ كيف هي وضعية المتكلم فيها؟ كيف تصنع هذه الرّسالة سرديتها؟**

أ- دواعي الرسالة :

ترتبط هذه الرسالة بواقعتها السردية. التي حدّدها المرسِل في رسالته. تحقّق عبر ارتباطها بواقعتها تلك، صورة أولى لحضورها. "إنها تتحرك وتحرك واقعتها معها"[25]. ويظهر ذلك من خلال البنى الكبرى المتمظهرة في النّص: **التصدي للبدع**، وكذا البنى الصغرى التي تؤسس فقرات الرسالة وتؤلف بين أجزائها وتجمع مفاصلها المختلفة. ويمكن تحديدها في المحاور التالية:

-الافتتاح بقصة الرسول الكريم مع الأمانة.

-توجه أفلح بن عبد الوهاب إلى جموع المسلمين ممّن هم تحت إمارته بالخطاب.

-حث مخاطبيه باللين على اتباع السّلف الصالح.

-أمره إياهم بالقوة على مقاتلة أصحاب البدع.(تحميلهم مسؤولية ذلك كاملة).

-توعّد أصحاب البدع.

- المقاربة بين أصحاب البدع وبين الشيطان في الكبر. فمآلهم جهنم لا محالة.

- فوز المنتصرين عليهم من المسلمين بالجنّة ورضوان الله.

ب - مقامات التخاطب في الرسالة:

في هذه الرسالة المنتخبة تنتظم **مستويات التخاطب** بين متخاطبين حقيقيين: المرسِل وهو الكاتب الحقيقي (من أفلح بن عبد الوهاب)- نحو (المرسَل إليه): "إلى من بلغه كتابنا من المسلمين ". دون أن يستثني المرسِل أحدا من المسلمين.

إذن يحقق أفلح حضوره المعنوي بحضور اسمه. مما يعني أن الرّسالة ستحلّق بعيدا لدى خروجها من حدود الفرد إلى أفق الجماعة لتؤمن حضورا للآخر لا يغيب إلا بغياب الرسالة وانقطاع أثرها. من هنا تغدو الرسالة ذات قيمة تداولية تحوّل المكتوب إلى مشافهة، لدى خروجها إلى فضاء التلقي الواسع. وهي بذلك إنما تقدم صورة عن مرسِلها كما تحافظ في مهمّاتها الاتّصالية على صورة متلقيها.

وتأتي صورة المتكلم (أفلح) لتضبط إيقاع السرد، المؤسس بدءا على الإبلاغ مؤكدة أفضلية علمه وتفوقه بهذا العلم. كاشفة موقعه في المجال التاريخي لرسالته. دون أن تضطر إلى تضخيم اسمه بما يسنده من صفات مؤشرة على مقامه: كالأمير أو السلطان أو القائد ...إلى غيرها من الصفات التي قد تعمّق درجة الرهبة لدى الرعية.

إن تخلي المرسِل **أفلح** عن صفة مقامه واكتفائه باسمه العلم فقط، يقوي توطيد علاقاته برعيته ويعززها. ويصبح التلقي قائما هنا على الرغبة والقبول وليس على الإكراه والعنف.

نعاين حضور السارد من خلال ضمير المتكلم الموظف في النص على عدة مستويات: لعل أهمّها كثافة حضور ضمير الجمع المخاطب الذي يضمر ضمير المتكلم. وتلك إستراتيجية خطابية خولت للمرسِل التحكم في المرسَل إليه. حتى وكأن هذا الأخير يبدو مستسلما لمشيئة الأول. ويتعمّق هذا الاستسلام لدى اختيار المرسِل كلمات ذات جرس نغمي مؤثر. ويصبح مقام التخاطب قائما على مصدر يأمر وآخر يصغي.

يتغيّر ضمير المخاطب في الرسالة بحسب مقام التلفظ، حيث يلجأ المرسِل إلى ضمير الجمع مع تدبيجه الرسالة. هنا "استعمال الضمير نحن مبرر في الظاهر باندراج حرمة الفرد في نشاط الجماعة."[26]. في المقابل نقف على ندرة استعمال الضمير المتكلم المفرد، مما يكشف تحرج المرسِل "من تصوير ذاته و إبراز حضوره من حيث الأفعال والأقوال و الأحاسيس. فهو يتخفى باستمرار وراء صيغة الجمع."[27]

يوجه المرسِل خطابه من موقع معين معلوم، أي أنه يضبط المسافة ويعمل على تحديدها بينه وبين رعيته. فهو العارف المحيط وهو مصدر الإبلاغ. وفي تحديده لمكانته تتحدد مكانة المسرود لهم. فهم الأقل دراية والأقل فطنة لما يحاك من وشايات ضد الدولة الرستمية. هذه المسافة تبقى على حالها طول مدتي الإبلاغ والإقناع لتتقلص نهائيا لدى استشعار المرسل أن خطابه أدى مهمّته الإبلاغية فتتقارب الرتبة بينه وبين من إليهم يتوجه بالخطاب. ليقول بضمير المتكلم المفرد وعلى مقربة من نهاية الرسالة "وقد بالغت إليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعظة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي ونهيتكم عما نهيت به نفسي"[28]. وهو بذلك يعيد ترتيب العلاقة بينه وبين رعيته لإدراكه حاجة متلقيه إلى هذه العلاقة الليّنة بعد كثافة جرعة التحذير والوعيد التي صدرت عنه. فقد بدأ باللين في مخاطبة جموع المسلمين الذين يتوجه إليهم بالخطاب، ثم انتقل إلى التحذير من المبتدعين الذين من أجلهم تمّ تدبيج الخطاب حيث توعّدهم بالقتال. ليعود من جديد إلى رعيته مخاطبا إياهم بخطاب شديد اللهجة حاثّا إيّاهم على ضرورة تحمل الأمانة. "واعلموا أن من كان كهذا فقد صار من حزب الشيطان"[29]. وسرعان ما تحوّل هذا الخطاب نحو اللين لدى توظيفه لنسق لغوي مختلف عن النسق السابق حيث تكثف بمعجمية خاصة: الفوز بالجنة، رضوان الله ....

وهنا ينغلق خطاب الرسالة الموجه إلى الرعية الذي كانت افتتاحيته متماثلة مع خاتمته وعمقه خاص بالتحذير من أصحاب البدع حتى لا يخسر المرسل متلقينه.

ج- سردية الرسالة :

السرد في الرسالة ليس مضخما بالذاتية، فالرسالة لا تلامس التلفظ السيرذاتي. و لم تنجح اللغة الرسائلية في الحفر في ذات المرسِل **أفلح** والحديث الحر عن بواطن نفسه، لأن مقام التلفظ يتنافى مع ذلك. وهناك من يؤكد أن "ثمة قطيعة تامة بين الناثر العربي ونصه وخضوع الكتابة عنده لإكراهات الإدارة والسلطة وضوابط القواعد والتقليد."[30] وأمام تقلص حضور الذات الساردة في الرسالة التي نعاينها يتمدد حضور الذات المتلقية، حيث حضر تمظهر ضمير المخاطَب الجمع بقوة من خلال أفعال الأمر: "تقربوا ...لتنالوا"-"ففي اتباعهم النجاة"- "و في خلافهم الهلكة" –"فاتبعوا ولا تبتدعوا" "اجتهدوا في إدراك ما أدركوه"....

يعلن نص الرسالة ولاءه للمنظومة الثقافية التي يندرج ضمنها. فهو يستجيب للأنظمة والأعراف التي يعتمدها الترسل في زمان ومكان معيّنين. والخطاب التراسلي في هذه المرحلة في مجمله مشدود إلى الدين لتقوية حجيّة الأفكار المطروحة قصد دفع منطق الخطاب إلى مداه لينفجر ويكشف عن قصديته المضمرة. ورسالة أفلح افتتحت بقصة الرسول الكريم مع الأمانة التي تحمّل أعباءها.

إن برنامج الرسول في تأديته للأمانة ضبطته الرسالة في:

نصح الأمة- الدعاء إلى سبيل ربه -جاهد عدوه- غلظ على الكفار- لان للمؤمنين.

وتدرج المرسِل بمتلقينه إلى أن انتهى بهم إلى النهاية التي قرنها بوفاة الرسول الكريم. فيغدو التكليف بالأمانة مشروع حياة لا ينتهي إلا بانتهائها.

يقول المرسِل مختصرا لنا هذه القصة بعد أن كثّف وحداتها السردية : "حتى انقضت مدته وفنيت أيامه"[31].

بهذه القصة النبوية يعقد السارد ميثاقا تواصليا يحمل المتلقي إلى تقبل السرد وبقية الرسالة بجاذبية كبيرة. شكّلت هذه القصة توجيها للرسالة وعتبة تنبئ عن موضوعها. وهو تعبير مبكر عن تقارب المقصدية مابين الرسول -عليه الصلاة والسلام- في تبليغ الأمانة والمسلم في مقاتلة أصحاب البدع. وذلك ما لم تفصح عنه الرسالة إلا لاحقا، حيث جاء نداء المسلمين الذين من أجلهم كتبت الرسالة متأخرا بالنظر إلى هذه القصة. يضمر إذن هذا المحكي في هذا الموضع من الرسالة موقفا إيديولوجيا سيعمل على إضاءة أغراض الرسالة وتحديد مقاصدها.

مع قصة الأمانة يتم انتقال دور المتكلم من مرسِل إلى سارد. هذا التحول يأتي في افتتاحية الرسالة لأن **أفلح** يعي مدى خطورة السرد لذا نلفيه بدءا يسارع إلى توظيفه ليوقع المتلقي في سحر قوله.

يلاحظ قارئ الرسالة أن الذات المتلفظة تستحضر السياقات الدينية الخارجية للخطاب مستغلّة إياه في إقناع المتلقين وتحقيق منفعة آنية. بل وتتدرج بالمتلقين من رتبة إلى أخرى في إستراتيجية سلسة توقع المتلقي في غواية السرد المتحرك تحت مقولة: **"كل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار"**. يقول: "فاحذورا معشر المسلمين من كانت هذه صفته".[32] تعمل الرسالة هنا على تأمين اللحمة داخل نسق المجتمع فتلفظ تلقائيا الذي يشوّش على استتباب أمنها.

لدى الانتقال من درجة الإبلاغ (اعلموا) إلى درجة الإقناع: "فعليكم معشر المسلمين باتباع..."[33] تفيد الذات المرسِلة من سلطة الدين لتوجيه سلطتها الراهنة وتستعرض الدنيوي في إطار ديني مما حملها إلى التدرج بالمبتدع إلى

درجة الكفر حيث وظفت الرسالة الآيات القرآنية الكريمة وما ينتج عنها من قصص وأخبار، لتتمظهر قصة سيدنا آدم مع إبليس على درجة متساوية مع قصة أصحاب البدع في الجماعة المسلمة. فكل منهما (إبليس والمبتدع) يلحق الضرر بنفسه ويجني عليها.

يقول السارد موظفا الخطاب المباشر الحر: أنا (خلقتني من نار وخلقته من طين).

نشير أن الاستناد إلى هذا الخطاب المباشر تمّ مرة واحدة في الرسالة في الموضع المدرج أعلاه. ونفترض أن تمظهر إبليس في هذا الخطاب بالضمير المتكلم المفرد يأتي ليفضح غباءه وكبره. فمتى كانت النار أفضل من الطين؟ حيث نلتمس استعلاء إبليس وتضخمه بهذا الضمير. ونعتقد أن هذا الاستعلاء بالضمير أنا جعل المرسِل يتحاشى توظيفه لأن مقام المرسِل مقام تواضع. والمرة الوحيدة التي وظف فيها أفلح الضمير المفرد المتكلم كان تواضعا منه، حيث سهل له هذا الضمير المتكلم المفرد "أنا" الاندماج مع الرعية حين قال: "وقد بالغت إليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعظة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي ونهيتكم عما نهيت به نفسي".

عرضت الرسالة صفات أهل البدع (الدنيوي): ملازمتهم الشيطان -الابتعاد عن مجالس العلماء- الكبر وعدم محاسبة الذات- إشاعة الفتوى الباطلة في أقوام جهلة.

على مستوى آخر عرضت الرسالة قصة آدم مع إبليس على النحو المعروض في القصص القرآني(الديني): الكبر -الهلاك -إلحاق الضرر بالنفس..

وتتسرب مع هذا التدرج في السرد انتقال طاقة من المرسِل باتجاه المتلقين لا تنتهي بانتهاء الرسالة بل تتعمّق لدى انتهائها. وهي الغاية التي يتوخاها الخطاب لأن بقاء " أفلح " ببقاء رسالته، بل إن بثّ الرّسالة في أوساط المسلمين تعكس الرّغبة في بقاء الحكم ثابت الأركان..

نشير إلى أن حدود الخطاب السياسي لا تنحصر في الفعل اللغوي فقط. بل تتعداه إلى مجمل الإمكانات التي تسمح بتوجيه رسالة ما بغرض التأثير وحمل المتلقي إلى اتخاذ موقف إزاء قضية ما. إنه خطاب إقناعي بامتياز يروم التأثير في المتلقين لحملهم على اتخاذ موقف أو ربما إعادة النظر في فهمهم لموقف ما. والمقصدية محافظة "أفلح" على حكمه من الزوال من بين يديه بتحريض المسلمين على التصدي للمخالف الذي ينعته بالمبتدع، وهو بذلك يؤمن الحماية لمشروعه الإيديولوجي ويغطي عليه بالمسلمين لأنهم هم الجند الأكبر. والبدع والدسائس إنما تنتشر فيهم. ومن يتخلف عن أداء هذه المهمة فهو من الخاسرين، بل هو من المغضوب عليهم إلى يوم يبعثون.

هوامش البحث:

1-مرتاض (عبد المالك)، الأدب الجزائري القديم -دراسة في الجذور، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. 2009: ينظر المقدمة.

2-أبوليوس (لوكيوس)، الحمار الذهبي، ترجمة: (دودو) أبو العيد، الجزائر، منشورات الاختلاف،2001.

3-غنيمي هلال(محمد)، الأدب المقارن، دار الثقافة. دار العودة، ص.202.

4- أبوليوس، الحمار الذهبي، ص.291.

5- مداوروش تقع بالقرب من مدينة سوق أهراس -الجزائر.

6- May Georges . L'autobiographie ,Ed :P.U.F.Paris:1984

7 -عاش القديس "أوغسطين" بين سنتي 354م-430 م -من أصل أمازيغي يلقب بالإفريقي، كتب "الاعترافات" قبل انبثاق الإسلام بقرنين ونصف، طبع هذا المتن مئات المرات وترجم إلى عشرات اللغات، نقله من الآتينية إلى العربية "إبراهيم الغربي" وراجعه "محمد الشاوش". صدر عن المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، عام 2012.

8- المؤدب (محمد الأمين)، حوار المشرق والمغرب وجدلية الأصل والفرع -قراءة في تراثنا البلاغي القديم. ضمن: البلاغة والخطاب إعداد وتنسيق: مشبال (محمد)، الرباط، دار الأمان، منشورات ضفاف، الجزائر، منشورات الاختلاف. (ط.1)، 2014،ص.83.

9- طمار (محمد)، تاريخ الأدب الجزائري،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية(ط.2)، ص. .273.

10- مرتاض (عبد المالك)، الأدب الجزائري القديم، ص.43.

11- إسماعيل (عز الدين)، المكونات الأولى للثقافة العربية، بغداد، وزارة الأعلام 1972، ص.13.

12- حمزة عباس (لؤي)، بلاغة التزوير –فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم –لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، منشورات الاختلاف (ط.1)، 2010، ص.19.

13-م س، ص.16.

14-م س، ص.16.

15- م س، ص.16.

16- م س،ص.15.

17- يتوحد الرسول في تطور المصطلح وتعدد مرادفاته مع مصطلح الرسالة نفسه. فقد أكد القرطبي هذا التقارب في إشارته إلى ما ذكره ابن الأنباري من أن الرسول والرسيل والرسالة سواء. ينظر: أبو يوسف بن عبد الله القرطبي –

بهجة المجالس وشحذ الذهن والهاجس –تحقيق: محمد مرسي الخولي –الدار المصرية للتأليف والنشر ط.1-دار الجيل(د.ت) ص.27. وينظر كذلك: حمزة عباس (لؤي)، بلاغة التزوير، ص. 20. "وقد يتسع دور الرسول وتنفتح مهمته إلى الدرجة التي يسمى فيها سفيرا –راجع لسان العرب لابن منظور: مادتي: رسل وسفر.

18- حمزة عباس (لؤي)، بلاغة التزوير، ص. 21.

19- مرتاض(عبد المالك)، الأدب الجزائري القديم،ص. 47.

20- بن رمضان (صالح)، المتكلم في المراسلات السردية القديمة- ضمن مؤلف جماعي(أعمال ندوة): المتكلم في السرد العربي القديم، إشراف -محمد الخبو-محمد نجيب لعمامي، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس (ط.1) ،2011.ص. 32.

21- الباروني (سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، المطبعة البارونية، القاهرة 1324-1904.ص.102.

22- بن رمضان (صالح)، المتكلم في المراسلات السردية القديمة، ص. 31.

23- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم -الأنواع والوظائف والبنيات، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون- الجزائر، منشورات الاختلاف(ط.1)، 2008، ص. 95.

24-م س،ص.96.

25- حمزة عباس (لؤي) ، بلاغة التزوير، ص. 21.

26- بنخود (نور الدين)، الذاتية في بعض أجناس النثر العربي القديم، ضمن :المتكلم في السرد العربي القديم، ضمن:المتكلم في السرد العربي القديم،ص.95.

27-م س،ص.95.

28- الباروني (سليمان)،الأزهار الرياضية،ص.104.

29-م س،ص.103.

30- بنخود (نور الدين)، الذاتية في بعض أجناس النثر العربي القديم،ص.89.

31- الباروني (سليمان)،الأزهار الرياضية،ص.102.

32-م س،ص.103.

33- م س،ص.103.